الشاعر

توفيق زيّاد

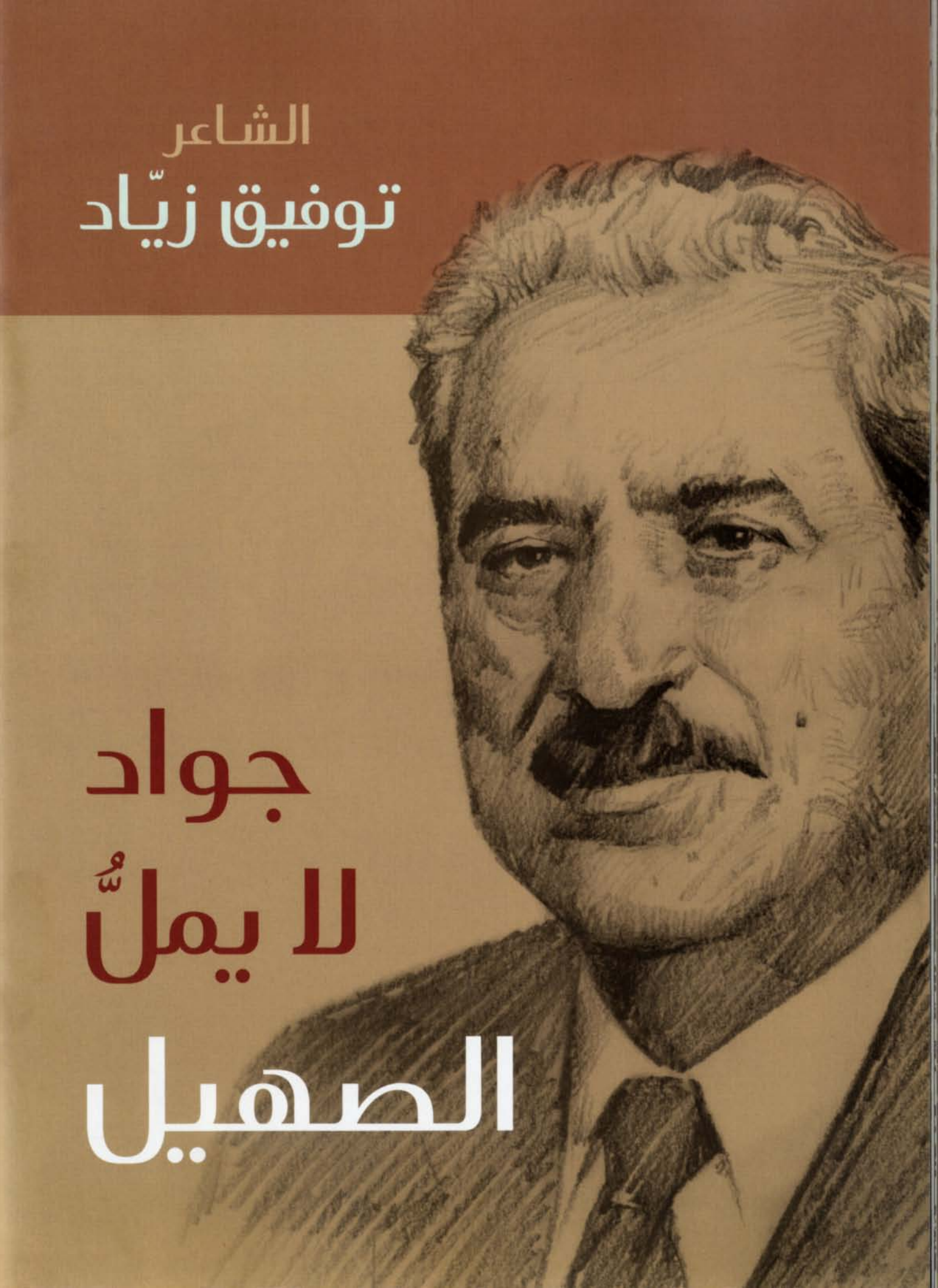

جواد الصهيل لا يملُّ

إذا لم تحترق أنت، وأحترق أنا، ونحترق نحن، فكيف يخرج من هذه الظلمات نور؟

ناظم حكمت

نبيل خالد الأغا
كاتب من فلسطين

الشعراء العظماء يمثلون ضمائر أمتهم، وهم الحاضنون لفضائل هذه الأمة وهمومها.. أفراحها وأتراحها. هكذا كانوا على مرّ التاريخ، وهكذا سيستمرون على ذات النهج ماداموا يتمتعون برفع تيجان العظمة الشعرية على جباههم، سيان في ذلك أكانوا أحياء يرزقون ويعيشون بين ظهرانينا، أم طواهم الموت، وغيبتهم الأرض بين أحشائها. والشاعر العربي الفلسطيني القائد توفيق أمين زيّاد واحد من هؤلاء العظماء الذين سجلوا حضورهم الفاعل في دفتر الخلود أثناء الحياة.. وبعد الممات.

تعرفت عليه في وقت مبكر من شبابي، وتحديداً في أعقاب النكبة الحزيرانية عام 1967، من خلال بعض قصائده الثورية التي صافحت أسماعنا، وعانقت قلوبنا، وكانت أول إطلالة لنا . نحن الشباب يومئذ . على شعراء الوطن المحتل منذ نكبة أيار 1948م. أو ما يسمى بالخط الأخضر. متمثلاً في الرواد الأوائل: توفيق زيّاد، وحنا أبو حنا، وسالم جبران حسب تصنيف النقاد.

ومن ثم الشعراء اللاحقون ومنهم: محمود درويش، وسميح القاسم، وحبيب قهوجي، وعصام عباسي، وراشد حسين وسواهم.

لقد امتصت أشعارهم الوطنية المميزة مساحات شاسعة من القهر الذي هيمن على نفوسنا جراء الهزيمة الحزيرانية القاسية، وأعادت جانباً مهماً من توازننا النفسي.

وأذكر أننا تلقينا بلهفة لافتة «ديوان الوطن المحتل» الذي أصدره الشاعر الفلسطيني المخضرم يوسف الخطيب، وجمع فيه أزاهير منتقاة من الشعر الفلسطيني المقاوم، ومن خلاله تعرفنا على المستوى الرفيع الذي ارتقى إليه شعراؤنا في الخط الأخضر، وقد ساهم الناقد المعروف صديقنا المرحوم رجاء النقاش في تعريف القراء والمثقفين العرب بتوفيق زيّاد من خلال نشره لديوانه كاملاً على صفحات مجلة الهلال المصرية التي كان يرأس تحريرها عام 1969.

سيرة ذاتية.. أم ظاهرة وطنية؟!

هي في الأساس سيرة ذاتية تشمل مسيرة توفيق زيّاد منذ شهقته الأولى حتى الأخيرة، ولكن بالنظر لخصوبة تلك المسيرة وغناها بمفردات العطاء الجمّة، فإن البعض يعتبرها ظاهرة وطنية، ومهما يكن من أمر فإن الخصوبة النضالية هي العنوان البارز في حياة شاعرنا الفحل التي امتدت على مسافة زمنية مقدارها خمسة وستون عاماً.

شهدت مدينة الناصرة حاضنة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، وعاصمة الجليل الفلسطيني ميلاد زيّاد في اليوم السابع من شهر مايو/أيار من عام 1929م.

كان أبوه رجلاً عصامياً، فبعد أن أنهى دراسته الابتدائية والثانوية في الناصرة، سافر إلى دمشق وتعلم مهنة التمريض خلال ثلاث سنوات عمل خلالها تاجراً متواضعاً لأنواع معينة من البضائع كان ينقلها على حماره الخاص متنقلاً بين الناصرة والشام يشتري من هنا ويبيع هناك وبالعكس، ولما توافر لديه مبلغ كاف للزواج تزوج وفتح الله عليه فامتلك دكاناً للبقالة واعتاش من أرباحه.

أما والدته فهي فلاحة فلسطينية أصيلة، اشتغلت مع زوجها في فلاحة الأرض، تنهض مع تنفس الصبح، تعجن وتخبز عشرات الأرغفة ليبيعها زوجها في دكانه، لذلك أحب أبو الأمين طول عمره أغنية سيد درويش «الحلوة دي قامت تعجن في الفجرية»، والتي غنتها فيروز فيما بعد.

وذات مرة تعرض توفيق لموقف قد يراه البعض محرجاً، لكن توفيق لم يره كذلك.

فخلال إحدى المعارك الانتخابية البلدية وصلت إلى مسمعه مقولة قيلت في بعض البيوت باللهجة الفلسطينية: «لمين بدكو تصوتوا.. لابن الجمّال؟!».

فما كان من توفيق إلا أن رد باعتزاز وثقة: «إنني شديد الافتخار بنفسي وبوالدي، لكن ليس صحيحاً أن والدي كان جمّالاً، فلم يعش ذلك العز والرفاه الذي يسمح له بشراء جمل، لقد تمكن فقط من شراء حمار»!

اكتسب توفيق زيّاد العديد من الصفات الحميدة من والديه، يقول: «من والدتي تعلمت الطيبة ودماثة الخلق، ومن والدي تعلمت الشجاعة والمواجهة».

موقف شجاع

أسفرت نكبة فلسطين عن عدة نتائج كارثية أهمها إعلان قيام دولة إسرائيل رسمياً بتاريخ 15 مايو/أيار 1948م وتحول مئات الآلاف من الفلسطينيين إلى لاجئين، بينما تشبث آلاف آخرون في مدنهم وقراهم، وقاوموا ببسالة فائقة سياسة التهجير القسري التي مارستها سلطات الاحتلال الإسرائيلي ضدهم وبخاصة في منطقتي الجليل والمثلث.

كانت عائلته ضمن العائلات التي ظلت متمترسة في مدينة الناصرة أرض الآباء والأجداد، وكان توفيق يومئذ في ريعان شبابه، فخرج إلى الحياة العملية متلفتاً يمنة ويسرة، متسائلاً في حيرة ودهشة: ما الذي حدث؟ وكيف؟ ولماذا؟ وما العمل؟

لابد إذن من اتخاذ موقف حازم لمواجهة الواقع العصيب، واستقر رأيه على الانضمام إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي المسمى «راكاح» ليس حباً في الشيوعية لذاتها، بل لأنه الحزب الوحيد في الدولة العبرية الذي يسمح بانضمام المواطنين العرب إلى صفوفه وممارسة نضالهم السياسي من خلاله، وكذلك فعل الكثيرون من الأدباء والشعراء والمثقفين، لكن ذلك لا ينفي وجود شيوعيين أقحاح أمثال صاحب هذه السيرة.

في عام 1954 فاز زيّاد بعضوية المجلس البلدي الناصري في انتخاباته الأولى، وأثناء انعقاد الجلسة الأولى طلب السماح للجمهور بحضور جلسات المجلس، لكن طلبه جوبه بالرفض من لدن السلطات الإسرائيلية، وأسرّها زيّاد في نفسه.

وعندما أضحى رئيساً للبلدية فوجئ أثناء عقد الجلسة الأولى بحضور قائد شرطة الناصرة، وقد جلس بجواره فأثار ذلك السلوك حفيظة الحاضرين، فوقف رئيس المجلس بشجاعة ليعلن أن «الجلسة التي تكون مغلقة أمام شعب الناصرة لن تكون مفتوحة أمام مدير الشرطة»!

ولأن القانون منسجم مع مقولة زيّاد فلم يجد قائد الشرطة «وندرمان» بداً من خروجه فخرج حانقاً وقد ابتلع الإهانة حتى الثمالة!

وهذا الموقف كان يحتاج في ذلك الوقت إلى شجاعة عظيمة قل مثيلها، وكان زيّاد أهلاً لها، كانت كلمة «فلسطيني» المجردة تعني مخاطرتك بحريتك أو حتى حياتك!

وحقيقة أن زيّاد ورفاقه في المجلس البلدي والكنيست نجحوا مرات عديدة في استصدار قرارات ضد سياسة الحكومة مثل إلغاء الحكم العسكري عام 1966، واستنكار مجزرة كفر قاسم عام 1956م وتعطيل ضم أراض عربية، واحتلت هذه الأخيرة مكاناً بارزاً في حياة المواطنين العرب، ذلك أن إسرائيل ومنذ الإعلان عن ميلادها غير الشرعي رفعت شعاراً عنصرياً بغيضاً هو: «المزيد من الأراضي والأقل من العرب»، والهدف مصادرة كل ما يمكن مصادرته من أراضي الفلسطينيين استناداً إلى «قانون أملاك الغائبين» الذي أصدرته إسرائيل في عام 1950 والذي نصّ على أن كل عربي ترك بيته قبل الإعلان عن «إسرائيل» يعتبر غائباً ويخسر حقوق الملكية للبيوت والأراضي التي ستؤول إلى الدولة.

وينطبق القانون بطبيعة الحال على سكان الضفة الغربية وقطاع غزة وباقي مواقع الشتات الفلسطيني، ويشمل الشعار اليهودي تدمير وإزالة قرى فلسطينية وترحيل كل من يمكن ترحيلهم من السكان.

وقررت القيادات العربية في الداخل مواجهة تلك المخططات، فتم تشكيل «لجنة الدفاع عن الأراضي». وأعلنت عن إضراب عام يوم 30 مارس/آذار عام 1976 احتجاجاً على الإجراءات الصهيونية، لكن الحكومة اعتبرت ذلك تحدياً لهيبتها وتجاوزاً لقوانينها، فواجهت الإضراب السلمي بالعنف الشديد، فقتلت قواتها ستة من الشباب العرب، وجرحت واعتقلت المئات، وأضحى «يوم الأرض» عنواناً بارزاً في موسوعة النضال الفلسطيني.

وكان زيّاد واحداً من بين المعتقلين على خلفية احتفال مواطني الناصرة وأم الفحم بيوم العمال العالمي في الأول من مايو 1958، وحكم عليه بالسجن الفعلي مدة ستة أشهر.. وبرغم قسوة الحكم إلا أن زيّاد استثمر فترة سجنه بعطاء شعري وفير. يقول في إحدى قصائده المعبرة عن مراجعة فكرية استعرض خلالها حياته، ووضح فيها عشقه الواله للوطن:

يا أمي التي في عُنقها الأغلال
يا شعبي الذي يريدُه الطغاة
أن يُقبّل النّعال
يا شارعاً تزدحمُ فيه بعضُها
مواكبُ الرّجال
يا إخوتي العُمّال
أحبُّكم جميعاً
أُحبُّ كُلَّ قَبْضَة مَهْزُوزة
في أوْجُه الأنذال
وكلَّ جبْهَة شامخة
في ساحة النّضال
وكُلَّ كَلِمَة جَريئة تُقال

حصل توفيق زيّاد في عام 1962 على منحة دراسية في موسكو، فاستقال من عضوية بلدية الناصرة، وسافر إلى

لم يكن والدي مرفهاً ليشتري جَمَلاً يعمل عليه لقد تمكن فقط من شراء حمار!

الاتحاد السوفياتي (سابقاً) فدرس الفلسفة والاقتصاد وتسنى له تعلم اللغة الروسية إضافة إلى إتقانه للإنكليزية والعبرية وقطعاً العربية الأم.

وفي عام 1966 ارتبط بشريكة حياته ورفيقة دربه نائلة يوسف صباغ التي تنتمي إلى عائلة شيوعية عريقة، وكان زواجهما حدثاً مدوياً في حياة الناصرة، فزيّاد ينتمي إلى عائلة مسلمة، ونائلة من عائلة مسيحية، وتم الزواج مدنياً حيث حافظ كل منهما على ديانته، وباركت العائلتان ذلك الزواج. لكن بعض أعضاء الحزب الشيوعي اعترضوا عليه، فحدثت بعض المشاكل فقرر الحزب نقل زيّاد وتعيينه رئيساً لتحرير مجلة «الجديد» الأدبية التي يصدرها الحزب. وبرغم عدم تقبله لعمله الجديد في بداية الأمر إلا أنه اعتبر عمله الصحافي وسيلة نضالية جديدة، ونظم أثناءها المزيد من الأشعار التي تناولت القضايا الوطنية والهموم الحياتية لشعبه الصابر، وبعض عناوين قصائده تدل على ذلك، ومنها: «من وراء القضبان» و«بورسعيد» و«ادفنوا أمواتكم وانهضوا» و«ثلج على المناطق المحتلة» و«أناديكم» وغيرها. وقد امتاز شعر زيّاد في شكله العام بالتعبير الجمالي الواضح، وسهولة فهمه وحفظه للخاصة والعامة في وقت واحد.

يقول في رائعته «أناديكم» واسعة الانتشار التي ينادي فيها بأعلى صوته مؤكداً انتماءه الأبدي لأمته، ومدافعاً عن مأساة أهله:

أُنَادِيكُمْ
أَشدُّ عَلَى أَيَادِيكُم..
أُبُوسُ الأَرْضَ تَحْتَ نِعَالِكُم
وَأَقُولُ: أَفْدِيكُم
وَأُهْدِيكُم ضِيَا عَيْنِي
وَدِفْءَ القَلْبِ أُعْطِيكُم
فَمَأْسَاتِي التِي أَحْيَا
نَصِيبِي مِنْ مَآسِيكُم.
أَنَا مَا هُنْتُ فِي وَطَنِي وَلا صَغُرَتْ أَكْتَافِي
وَقَفْتُ بِوَجْهِ ظُلاَمِي
يَتِيماً، عَارِياً، حَافِي
حَمَلْتُ دَمِي عَلَى كَفِّي
وَمَا نَكَّسْتُ أَعْلامِي
وَصُنْتُ العُشْبَ فَوْقَ قُبُورِ أَسْلاَفِي
أُنَادِيكُمْ... أَشدُّ عَلَى أَيَادِيكُم!!
بِأَسْنَانِي
سَأَحْمِي كُلَّ شِبْرٍ مِنْ ثَرَى وَطَنِي
بِأَسْنَانِي.
وَلَنْ أَرْضَى بَدِيلاً عَنْهُ
لَوْ عُلِّقْتُ
مِنْ شِرْيَانِ شِرْيَانِي.

وتعد هذه المجموعة الشعرية التي صدرت في حيفا عام 1966 علامة فارقة في تاريخ النضال الفلسطيني ضد إسرائيل، وتضمنت عدداً من القصائد الوطنية المقاومة، وبعضها تحول إلى أغانٍ ثائرة تثير الحمية، وتبعث الهمة.

وقد كانت لحقبة الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضي دلالتها القومية، وهي فترة الحكم العسكري على الأقلية العربية في إسرائيل، وهي في الوقت ذاته حقبة المد القومي في العالم العربي.

وبرغم الممارسات الصهيونية الحاقدة على زيّاد ونهجه المقاوم للدولة العبرية إلا أنه وبمؤازرة قوية من شعبه أضحى في الأول من يناير عام 1973 عضواً في البرلمان (الكنيست) الإسرائيلي، وبرغم أن تلك العضوية حصنته نسبياً من بشاعة المعاملة إلا أن بعض المتعصبين اليمينيين طالبوا بمنعه من دخول الكنيست حيث اعتبروه «طابوراً خامساً»، وطالبوا بنزع حصانته البرلمانية توطئة لمحاكمته، لكنه تصدى لهم ببسالته المعهودة، ودخل بهامة ممشوقة، وخطب لأول مرة بالعبرية، غير أن أحد النواب اليهود قاطعه قائلاً: من أين تعلمت العبرية؟ فأجابه بتحد وتحقير: تعلمتها من سجونكم!

هنا باقون

«هنا باقون» رائعة أخرى من روائع زيّاد.. عنوانها الشموخ والكبرياء والتشبث بالأرض رغم كل ألوان الحيف والعنت والظلم، يصرخ في وجه النازيين الجدد:

كأننا عشرونَ مُسْتَحيل
في اللّدِ، والرَّمْلَة، والجَليل
هنا.. على صُدورِكُم، باقونَ كالجدار
وفي حُلوقِكُم،
كَقطعَةِ الزُّجاج، كالصَّبّار
وفي عُيونِكُم،
زَوبعةٌ من نار.
هنا.. على صُدورِكُمْ، باقونَ كالجِدار
نُنَظِّفُ الصحونَ في الحانات
ونَملأُ الكُؤوسَ للسادات
وَنَمْسَحُ البَلاطَ في المطابخِ السَّوداء
حتى نَسُلَّ لُقْمَةَ الصِّغار
من بَيْنِ أَنيابِكُمُ الزَّرْقاء
كأننا عشرونَ مُستحيل
في اللّدِ، والرَّملَة، والجَليل..

إن المتأمل في شعر زيّاد يدرك أنه نجح بامتياز في اختياره الدقيق للألفاظ المعبرة عن مكنوناته التي يسّرت وصولها إلى الجماهير العربية الكادحة، حيث رأت من خلالها وجهها ونبضها وكينونتها. لقد تحولت مفرداته الصادقة إلى طاقة جبارة هزت الضمائر، وفجرت ينابيع العزم

« كأننا عشرون مستحيل في اللد والرملة والجليل »

وطاقات القوة الكامنة في النفوس، فأعادت للجماهير توازنها، فانطلقت كالصواعق تدمر اليأس والقنوط وتتحول إلى زلازل وبراكين وديناميت.

وأمسى الشاعر خبيراً مدركاً لغايات المحتل وأهدافه المتمثلة في تنظيف الوطن من أهله الأصلاء، وقذفهم في أتون الغربة والتشرد وإلحاقهم ببقية الأهل المشردين في بقاع الأرض، وذلك بهدف قطع الطريق أمام أي أمل بعودتهم إلى جذورهم الممتدة في أعماق التاريخ.

وإضافة إلى تبنيه لقضايا الأرض دافع زيّاد من خلال مواقعه القانونية عن قضايا التجهيل والمعتقلين وميزانية الناصرة المالية، ووقف نداً عنيداً للحكومة، ونظراً لردوده العنيفة التي استفزت ممثليها في الكنيست فقد أجبر على الخروج أثناء بعض الجلسات. لكنه في النهاية أحرز الكثير من المكاسب من بينها استجابة الحكومة لطلبه بمساواة الناصرة في الميزانيات العادية والتطويرية مع البلديات الإسرائيلية المساوية لها في عدد السكان، وقد استفادت بلديات عربية أخرى بنفس المميزات.

التجربة النضالية لزيّاد ولّدت فيه طاقة عناد صلبة صلابة صخور الجليل.. لذلك نراه يحتمل كل المضايقات والإهانات إثباتاً لحقه وحق شعبه في الحياة الحرة الكريمة داخل وطنه الذي لا يعرف له وطناً غيره.. فهو ماضيه وحاضره ومستقبله:

إنّا هُنا باقون
فَلْتَشْرَبوا البَحْرا
نَحْرُسُ ظِلَّ التِّينِ والزَّيْتون
وَنَزْرَعُ الأَفْكارَ، كالخَمِيرِ في العَجين
هنا.. لنا ماضٍ.. وحاضِر.. ومستقبلْ
يا جَذْرَنا الحَيَّ تَشَبَّثْ
واضْرِبِي في القاعِ يا أُصول.

لقد بدأت شمس اليقظة الوطنية - التي أضاءها زيّاد وزملاؤه الشعراء في الشمال الفلسطيني - تسطع وعياً وإدراكاً في نفس الشخصية الفلسطينية. فنراه يحاول إعادة الوجود إلى أمه (وطنه) «فيناديها من أعماق بئر المأساة والأحزان ليذوب في جروحها كي يداري هذه الجروح في همة الفتى الناقم العنيد، وفي تفاني راعٍ عربي في الجليل وطهره»:

يقول الشاعر في قصيدة «السكر المر».

نجح الشاعر بامتياز في اختياره الدقيق للألفاظ السهلة الممتنعة التي يسرت وصولها للقارئ

أجيبيني!!
أنادي جُرحَك المملوء ملحاً يا فلسطيني
أناديه وأصرخُ:
ذوّبيني فيه.. صبّيني
أنا ابنُك! خلّفتْني ها هنا المأساةُ،
عنقاً تحْتَ سكّينِ
أعيشُ على حَفيفِ الشَّوْقِ..
في غابات زيتوني.
وأكْتُبُ للصَّعاليك القصائدَ سُكَّراً مُرّاً،
وأكْتُبُ لِلْمَساكين.
وأغْمِسُ ريشَتي، في قلْبِ قلْبي،
في شَرايِيني.
وآكلُ حائط الفولاذ..
أشْرَبُ ريحَ تشْرين.
وأدْمي وجْهَ مغْتَصبي
بشعْرٍ كالسَّكاكين.
وإنْ كَسَرَ الرَّدى ظَهْري،
وضَعْتُ مكانَهُ صُوانَةً،
منْ صَخْرِ حطّين..!!
فلسْطينيَّةٌ شَبابتي،
عَبَأْتُها، أنفاسيَ الخَضْرا ومُوّالي.

تأثر توفيق زيّاد من ظاهرة موجات النزوح المتتالية من رحم فلسطين الأم إلى الخارج، وجرفت معها أجيالاً من المثقفين الفلسطينيين وقذفتهم مع غالبية شعبهم في أتون الإغتراب. لكن الشاعر لا ييأس، إنه كالجواد الأصيل لا يملّ الصهيل، فيصبر ويصبر، وهو واثق من النصر مهما طال الزمن.. فالعدل هو سنّة الحياة مهما تمادى الظالم في ظلمه.

يقول: «وسرب النسور هذا الذي حملته العاصفة خلّف وراءه فراخاً طريي العود، بالكاد يستطيع الواحد منها أن يمسك حفنة ريح تحت جناحيه، وأكثر فراخ النسر هذه شهرة ما كان ليعلق شعرة بغير ذاكرته هو، وأما اسمه فلم ير أسود على أبيض في الصحف أكثر من مرات لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة».

ويعلن أبو الأمين تحديه الصلب في قصيدة «نيران المجوس»:

على مَهْلي
لأنّي لَسْتُ كالكبْريت
أُضيءُ لمرّة.. وأَموت
ولكنّي..
كنيران المجوس: أُضيء..
من مَهْدي
إلى لَحْدي!

وَمِنْ سَلَفي إلى نَسْلي!
طَويلٌ كالمدى نَفَسي
وأُتقِنُ حِرْفَةَ النَّمْلِ
لأنَّ وَظيفَةَ التّاريخِ...
أنْ يَمْشي كما نُمْلي!!

لقد آمن زيّاد بالجماهير ورأى فيها قوة جبارة قادرة على تغيير الواقع. وآمن بأن الإنسان هو الفاعل والمؤثر مهما ارتقى موقعه أو انخفض، وطرح دستوراً فكرياً مثالياً يحمل معاني إنسانية نبيلة بقوله:

وأُعطي نِصفَ عُمْري لِلَّذي يَجْعَلُ طِفْلاً باكياً يَضْحَكْ
وأعْطي نِصْفَهُ الثّاني لأحْمي زَهْرَةً خَضْراءَ أنْ تَهلَكْ
وأَمْشي أَلْفَ عامٍ خَلْفَ أُغْنِيَةٍ
وأَقْطَعُ أَلْفَ وادٍ
شائكَ المَسْلَكْ
وأَرْكَبُ كُلَّ بَحْرٍ هائجٍ
وَحَتّى أَلَمَّ العِطْرِ
عِنْدَ شَواطِئِ اللَّيْلَكْ

وهو يعشق الحياة الممهورة بخاتم الحرية والاستقلال والكرامة. وليست حياة العبودية والمذلة والهوان. يقول:

أنا البَشَرِيَّةُ في حَجْمِ إنْسان
فهلْ أرتاحُ والدَّمُ الذي يُسْفَكْ؟!
أُغَنّي للحياةِ فللحياةِ وَهَبْتُ كُلَّ قَصائدي
هِيَ كُلَّ ما أَمْلَكْ
ويقول معبراً عن هيامه المتجدد لوطنه:
مِنْ شِدَّةِ حُبّي لبلادي
لا أَفْنى وأموت
لكنْ أَتَجَدَّدُ دَوْمًا أَتَجَدَّدْ

تبدو النزعة الإنسانية واضحة التقاسيم في شعر زيّاد، وهي التي دفعته للتسامي على جراحه وآلامه ليرى جراح أخيه الإنسان في كل مكان. وليعزز شرعية الكفاح الفلسطيني ضد الظلم الذي يأباه الإنسان السوي ولا يرتضيه لا لنفسه ولا لسواه من البشر. وبالموازاة مع هذا فهو صاحب فكر أممي فرض احترامه على الجميع بمن فيهم أعداؤه الذين لم يكن معادياً ليهوديتهم، بل لسياستهم العنصرية بكل نتانتها وبشاعتها.

وفي الفترة الأخيرة من حياته دعا زيّاد إلى التعايش السلمي بين العرب واليهود على أساس الاحترام المتبادل بين الطرفين والاعتراف بالحقوق.

وكان من بين المؤيدين صراحة لاتفاقية أوسلو التي أدت إلى قيام السلطة الوطنية الفلسطينية عام 1993.

وتبدّى تأييده بوضوح في قوله بالكنيست: «... اتضح في نهاية المطاف أن في الشرق الأوسط شيئاً غير الحروب والعداء القومي وسفك الدماء، وهذا الشيء هو الانعطاف في اتجاه السلام بين شعبينا في منطقتنا، وإنه يمكن استبدال الدموع والثكل بالبسمة التي تنير وجوه البسطاء».

وشارك بنفسه في ترسيخ عملية السلام، فتوجه من الناصرة إلى أريحا لاستقبال الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات بعد أن استقبله سابقاً في غزة.

الفراق المر

كان زيّاد يتطلع بشوق عارم، ولهفة حرّى، وأمل باسم ليشهد بنفسه بزوغ فجر دولة فلسطين المرتقبة، لكن إرادة الحق تبارك وتعالى لم تشأ تحقيق أمنيته التي لم تتحقق حتى الساعة، وحدث ما لم يكن في حساب بشر!، استلّه مَلَكُ الموت من الدنيا فارتقى زيّاد إلى رحاب الخالدين.

ففي مساء اليوم الخامس من يوليو/تموز 1994 عندما كان عائداً من أريحا باتجاه القدس اصطدمت سيارته التي كان يقودها بنفسه بسيارة مقابلة وجهاً لوجه، فقضى نحبه في الحال.. فبكاه الأصدقاء والأحباب حيثما وجدوا، وخرجت الناصرة عن بكرة أبيها تشيعه وقد تلبدت سماؤها بالهموم والغموم في أكبر وأضخم جنازة في تاريخ الجليل والمثلث. وهذا الحشد الهائل له دلالته التي تؤكد عمق التصاق الجماهير به، وعشقها له مناضلاً، وسياسياً، وأديباً، وشاعراً، وخطيباً، وقبل ذلك كله إنساناً بكل ما في ميزان الإنسانية من معاني النبل والأريحية والوفاء.

ولكن ما طبيعة المشاعر التي كانت تختلج في ذهن زيّاد برهة مصارعته للفولاذ طلباً للحياة التي أحبها ووهبها قصائده؟، سؤال تصعب الإجابة عنه.. الحق تبارك وتعالى وحده القادر على ذلك فهو سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

أليس هو القائل: من شدة حزني سأموت، إن يوماً سأموت، لا حزناً أو حسرة لكن.. من شدة حبي لك يا وطني.

لكن ثمة تخمينات وربّمات محتملة..

ربما كان يفكر في الدولة الفلسطينية التي جحظت عيوننا ونحن نتلظى ونتطلع شوقاً لمرآها وهي مستكنة في رحم الغيب!

ربما راوده شك بأن أعداء ماضينا وحاضرنا يُسمعوننا جعجعة ولن نرى طحناً أبداً!

ربما أدرك أنه وأنا ونحن جميعاً نحترق لكن لم يخرج من هذه الظلمات نور كما يخبر صديقه الشاعر التركي ناظم حكمت!

بعد وفاته نشأت فكرة إقامة «مؤسسة توفيق زيّاد للثقافة الوطنية والإبداع» بمدينة الناصرة، وفاء وتخليداً لابن فلسطين البار وحفاظاً على التراث الفلسطيني الذي شغل حيزاً من اهتمامات زيّاد. ومساهمة متواضعة في

شهد له أعداؤه بالتفاني في خدمة مواطنيه العرب في إسرائيل وتوفير السبل لنيل حقوقهم

المحافظة على «عروبة المكان ورعاية التاريخ والحاضر والمستقبل أمام محاولات التزوير والتشويه».
وتقوم برعاية هذه المؤسسة الرائدة نخبة متميزة من عائلة الراحل الكبير وأصدقائه ومريديه.
هذا، وقد رفد الشاعر المكتبة العربية بعدد من أعماله الشعرية والنثرية.

الأعمال الشعرية

1. أشد على أياديكم (حيفا 1966).
2. ادفنوا موتاكم وانهضوا (بيروت 1969).
3. أغنيات الثورة والغضب (بيروت 1969).
4. أم درمان المنجل والسيف والنغم (بيروت 1970).
5. شيوعيون (بيروت 1970).
6. كلمات مقاتلة (عكا 1970).
7. عمان في أيلول (حيفا 1970).
8. تهليلة الموت والشهادة (بيروت 1972).
9. سجناء الحرية (الناصرة 1973).
10. الأعمال الشعرية الكاملة (عكا 1985).

الأعمال النثرية

1. عن الأدب الشعبي الفلسطيني (بيروت 1970).
2. نصراوي في الساحة الحمراء (الناصرة 1973).
3. صور من الأدب الشعبي الفلسطيني (بيروت 1974).
4. حال الدنيا/ حكايات فولكلورية (الناصرة 1975).

وترجم بعضاً من الأدب الروسي، وكذلك بعضاً من أعمال الشاعر التركي ناظم حكمت.
وصدر عنه كتيب «الفارس» في ذكرى الأربعين لوفاته، وأشرفت عليه بلدية الناصرة عام 1994.
.. هذا وقد حاز الشاعر على وسام القدس للثقافة والآداب والفنون عام 1990، وترجمت قصائده لعدة لغات.

بصمات الأعداء

• يعتبر القائد الراحل توفيق زيّاد أول وأبرز مسؤول فلسطيني يحظى بقدر عظيم من احترام وتقدير أعدائه الذين شهدوا له بالتفاني في خدمة شعبه، وإسعاد مواطنيه العرب في إسرائيل، وتوفير كل السبل المتاحة لانتزاع حقوقهم.
أربع شخصيات إسرائيلية رفيعة المستوى عبرت عن حزنها لوفاة أبي الأمين ووصفته بـ «صاحب الشخصية المميزة» و«المناضل»، العنيد، الشجاع، والعظيم.....
أما رئيس الكنيست فقد عبّر عن احترامه لعضو الكنيست زيّاد بقوله: «نحن نحترمه محارباً شديداً» من أجل مبادئه، وهذه بصمات ألسنتهم وأقلامهم:

• فقدنا قائداً بارزاً على مدار سنوات طويلة من أجل مساواة الحقوق للمواطنين العرب في إسرائيل على الأصعدة المحلية والبلدية والقُطرية. وستفتقده عائلته ومدينته والكنيست وشعبه بشخصيته المتميزة وبأشعاره وكتاباته.

عيزر فايتسمان - رئيس اسرائيل

• كان توفيق عربياً فخوراً، وعضو كنيست شجاعاً، وشاعراً ذا حس، لم نواجه آراءه باللامبالاة حتى عندما لم نتفق معه، الجماهير العربية في إسرائيل وسكان الناصرة خسروا أحد أبرز الأبناء الغالين والأكثر إقناعاً في تاريخهم.

شمعون بيريز -وزير الخارجية

• عندما نصل إلى السلام الشامل المنشود، سيسجل ذلك لصالح عضو الكنيست توفيق زيّاد، وهو الذي طرح أفكاره هنا (في الكنيست) بشدة وفي بعض الأحيان بقسوة، إنه ساهم في بناء الجسر الذي يصل بين الشعبين. سيكون لتوفيق زيّاد مكان مميز في هذا الجسر الذي سينقلنا في النهاية من عهد الحرب إلى عهد السلام.
إن توفيق زيّاد كان مناضلاً عنيداً. وكان رئيساً للبلدية بانتخابات مباشرة لعدة مرات، ونحن نحترمه محارباً شديداً من أجل مبادئه.

شيفح فايس -رئيس الكنيست

• هناك أناس يصبحون في حياتهم رمزاً، ثم يصبحون عظماء بعد وفاتهم، هذا ما حدث لزميلنا عضو الكنيست المرحوم توفيق زيّاد.

عوفاديا علي- نائب رئيس الكنيست

أزاهير الأحباب

• تلقيت ببالغ الأسى والحزن خبر استشهاد المناضل الفلسطيني توفيق زيّاد، ابن الناصرة البار وعاشق فلسطين الأبدي والأخ والصديق، ورجل من الرجال الكبار العاملين من أجل السلام.
إنني أنقل باسم شعب فلسطين وسلطته الوطنية وباسمي شخصياً أصدق التعازي لعائلة الفقيد ولأهل الناصرة والجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة ولكافة زملائه من الفلسطينيين والإسرائيليين ولعموم الأحرار والشرفاء في العالم وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يسكنه فسيح جناته.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

الرئيس ياسر عرفات

آمن بقوة الجماهير وبأن الإنسان هو المؤثر الأكبر مهما ارتقى موقعه أو انخفض

• في انطفاء توفيق زيّاد المفاجئ، ينطفئ آخر أصوات العاصفة. الغبار يعانق الغبار والشيء يشبه الشيء ولا مطر على المشهد.. بيد أن هذا المسافر، أمس، كانت طلائع عالمه القديم قد سافرت من قبل، وبقي هو حيث شاءت لغته.. قابضاً على شبكة الأعصاب التي تربط الفكرة بحاملها.

من القصيدة إلى المظاهرة، من المظاهرة إلى الزنزانة، ومن الزنزانة إلى فضاء اللغة.. كان توفيق زيّاد يصير إلى ظاهرة: إلى قائد وإلى بطل ورمز، يلهب الحماسة والمرح ويزوج الحرير للحديد. وكان هو، كما هو الحماسة والمرح هو الحديد والحرير، وهو الحث على الحياة، وعلى حب الحياة حتى نشوة الصعاليك.

آن لي أن أعرف، وآن لي أن أعترف بأن أشياء كثيرة تموت في، تموت في على مهل على مهل، في أوج هذا الفراغ.

لم يعد للعاصفة صوت!

محمود درويش

• برحيل أبي الأمين، المفاجئ والكارثي، خسرنا المرساة التي ثبتت سفينة شعبنا في مينائها الأم ـ الوطن ـ في مواجهة الأمواج الجارفة والدوامات المغرقة. لقد عاش حياته كلها شأنه شأن المرساة مرتبطاً بالجذور ومعبراً عن جيرانه المباشرين ـ الينابيع الباطنية.

توفيق زيّاد لم يكن مجرد معبر واضح عن نصيبنا من مأساة شعبنا، بل كان هو نفسه، طول حياته، التعبير الشامل عن هذا النصيب، من سجن ونفي وتعذيب وبطالة ومنع تجول ومختلف موبقات الاضطهاد القومي. كان بيته في الناصرة هدفاً ثابتاً لهجمات الشرطة كلما قام أهل الناصرة بحركة احتجاجية.

إميل حبيبي

• توفيق زيّاد واحد من مثقفي العرب الكبار الذين جعلوا من الثقافة وطناً.. وأبوا أن يجعلوا من إسهامهم تأملاً ذاتياً بل قوة فعل.. وسوف يبقى شعره كما ستبقى سيرته هادياً على الطريق الطويل للتحرر والسلام الحقيقي.

فريدة النقاش

• أخي الأمين، يا أبا الأمين:

لن أضعك في كلمات، قد أفعل ذلك يوم أحس بدنو أجلي، وإلى أن تبدأ نملة الزمن خرمشة الموت على أطراف الجسد، فسنذكرك فيما تبقى لنا من فرص الأفراح الصغيرة، وسنذكرك فيما تبقى من قراءات شعرية، مهرجانات وتظاهرات، وستظل لاسمك مساحة من الدم على منشور في يوم الأرض، أو يوم النصر على النازية أو يوم الأم، ويوم المرأة العالمي، ويوم الدولة الفلسطينية.

سنلتقي بلا ريب، لكننا سنشتاق إليك كثيراً إلى أن يكون اللقاء، وسيرهقنا هذا الفراغ الهائل الذي تركته وراءك.

سميح القاسم

• كان توفيق زيّاد واحداً من أفذاذ الرجال الذين أنجبهم الشعب العربي الفلسطيني، فلم يتوقف لحظة عن النضال من أجل الأخوّة العربية ـ اليهودية القائمة على مبدأ سلام الشعوب، ولم يفتأ حتى لحظة موته المفاجئ يحلم بالسلام العادل والثابت الذي تتوق إليه شعوب منطقتنا.

محمود شقير

• أراد أبو الأمين أن يكون صوتاً قوياً في سبيل العدالة والمحبة، وله اليوم نصلي، وله تُقرع أجراس الكنائس وتُؤذّن المآذن.

دافع عن حقوق الإنسان وناضل في سبيل التعايش بين الشعبين في هذه الأرض المقدسة، وبين الطوائف والأديان، عمل كثيراً في سبيل شعبه ومدينته.

البطريرك ميشيل صباح

• المناضل توفيق زيّاد يمثل نموذجاً نادراً بين الرجال، لقد عرفت فيه عن كثب ذلك الرجل الحي الودود، والمرح الضاحك والمتفائل بانتصار الحق والسلام.

د.حيدر عبدالشافي

• يا أخي يا أبا الأمين: أتخيل لو أن الزمن أتاح لك أن تكتب وصية لكنت ستكتب في رأسها: صونوا وحدتكم، صونوا وحدة بلدكم، صونوا وحدة شعبكم، ونحن يا أبا الأمين سنصون الأمانة، ونحملها بشرف.

د.زكريا الأغا

• أبو الأمين علّمني شخصياً من خلال كلماته وفي مطلع شبابي أن هذا الشعب من المستحيل هزيمته. أتقدم إليك بعرفان الجميل والمحبة والعهد على استكمال المسيرة التي ناضلت من أجلها.

فيصل الحسيني

• لقد وقف توفيق زيّاد ورفاقه ضد سياسة الطرد والترحيل والتهجير والمذابح وسلب الأرض، وأن الراحل قائد يوم الأرض الخالد، وهو اليوم الذي أصبح يوماً كفاحياً للشعب الفلسطيني.

نائلة زيّاد

أحب العمال ودافع عن حقوقهم وقاسمهم رغيف الحياة وماء الكرامة وملح الشقاء

الهوامش

1. ديوان الوطن المحتل، يوسف الخطيب، دار فلسطين للتأليف 1968.
2. الأعمال الشعرية الكاملة، توفيق زيّاد، دار العودة، بيروت 1971.
3. موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين، أحمد عمر شاهين، دمشق 1992.
4. محطات على الطريق إلى فلسطين، ياسين الشريف، الدوحة 2001.
5. شعراء فلسطين في القرن العشرين، راضي صدوق، بيروت 2000.
6. موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، سلمى الخضراء الجيوسي، المؤسسة العربية، بيروت 1997.
7. مواقع مختلفة في الشبكة العنكبوتية، ومن ضمنها موقع «مؤسسة توفيق زيّاد للثقافة الوطنية والإبداع»، الناصرة.
8. الفارس، بلدية الناصرة 1994.